﴿سورة الأعلى﴾

وفيها ست مسائل :

المسألة الأولى: فى قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ وصِف الربُ فى هذه الآيات بأربعة أوصاف ... فما هى ؟

الجواب: وصفت هذه الآيات الكريمات الرب ﷻ بصفات عظيمة تدل على عظيم قدرته وكمال ملكه ألا وهى :

أولاً: أنه الرب الأعلى؛ فلفظ ﴿**ٱلأَعلَى**﴾ اسمٌ يُفِيد الزيادةَ في صفة العلو؛ أي: الارتفاع، والارتفاع معدودٌ في عُرف الناس من الكمال، فلا يُنسَب العلو بدون تقييد إلا إلى شيءٍ غير مذموم في العرف، ولذلك إذا لم يذكر مع وصف الأعلى مفضَّل عليه أفاد التفضيل المُطلَق، كما في وصفه – تعالى – هنا، فهو ﷻ الأعلى بإطلاق .

ثانياً: ﴿**ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ**﴾ أى خلق المخلوقات فسواها أى أتقنها وأحسن خلقها، وهذا كلام إما أن يراد به خلق الإنسان على الخصوص، أو خلق الكائنات على العموم، فإن أراد به الإنسان على وجه الخصوص فيكون معنى التسوية هنا: خلق الإنسان مستوياً القامة، معتدلاً ،قادراً على القيام، والسير على قدمين، منتصب الظهر، معتدل القامة، عكس غيره من الكائنات فكلها تسير على أربع من غير اعتدال ولا قدرة على القيام، وإن كان الكلام على العموم أى جميع الحيوانات قال: (إن المراد إنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات، وحواس)[1] .

ثالثاً :﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ قال الفخر الرازى عن هذه الآية: (يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها كل واحد على حسبه فقدَّر السموات، والكواكب، والعناصر، والمعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان، بمقدار

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٢٦ .

مخصوص من الجثة والعِظَم، وقدَّر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة، ومن الصفات، والألوان، والطعوم، والروائح، والأوضاع، والحسن، والقبح، والسعادة، والشقاوة، والهداية، والضلالة، مقداراً معلوماً على ما قال:﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)**﴾[١]، وتفصيل هذه الجملة مما لا يفي بشرحه المجلدات بل العالم كله من أعلى عليين إلى أسفل السافلين) [٢] .

وفى مجموع أقوال المفسرين ما يدل على قدرة الله ﷻ فى أن قدَّر أرزاق الخلائق ثم هداها للحصول عليها والوصول إليها، ولذا قيل: (قيل: قدَّر الأرزاق، وهدى لاكتساب الأرزاق والمعاش)[٣] .

رابعاً :﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥)﴾ وهو مثل ساقه الله ﷻ لبيان قدرتهوعظيم صنعه، قال صاحب التبيان فى الآية الكريمة: (وفيه قولان:أحدهما: **﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤)﴾** أحوى أي: أخضر غض يضرب إلى السواد من شدة الخضرة والري، فجعله بعد خضرته غثاء أي يابساً، والغثاء ما يبس من النبت فحملته الأودية والمياه، والقول الثانى: **﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾** أي يابساً، **﴿أَحْوَىٰ﴾** أسود من قدمه واحتراقه ، أي فكذلك يميتكم بعد الحياة)[٤].

فالله ﷻ قد ساق هذا المثل لبيان قدرته على إماتة الأحياء ثم بعثهم كما يحدث مع المرعى الأخضر اليانع الذى يتحول حاله إلى اليبس والجفاف .

المسألة الثانية: ما معنى قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهل يجوز أن ينسى الرسول ﷺ كباقى البشر ؟

والجواب: إن النسيان من الرسول ﷺ لشئ من القرآن الكريم على نوعين: **أَحَدهمَا:** نِسْيَانه الَّذِي يَتَذَكَّرهُ عَنْ قُرْبٍ، وَذَلِكَ قَائِم بِالطِّبَاعِ

(١) سورة الحجر / الآية ٢١ .
(٢) مفاتيح الغيب ٣١ / ١٢٧ .
(٣) معالم التنزيل ٨ / ٤٠٠ .
(٤) التبيان فى تفسير غريب القرآن ص ٤٥٩، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري، دار الصحابة للتراث بطنطا – القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م.

الْبَشَرِيَّة، وَعَلَيْهِ يَدُلّ قَوْله ﷺ فِي حَدِيث اِبْن مَسْعُود ﷺ فِي السَّهْو (إِنَّمَا أَنَا بَشْر مِثْلكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ)، **وَالثَّانِي:** أَنْ يَرْفَعهُ اللَّه عَنْ قَلْبه عَلَى إِرَادَة نَسْخ تِلَاوَته، وَهُوَ الْمُشَار إِلَيْهِ بِالِاسْتِثْنَاءِ فِي قَوْله ﷻ :﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ**﴾.

وعلى هذا فإن النسيان الفطرى البشرى قد يقع منه ﷺ وهذا لا حرج فيه لأنه لا يمس الدعوة ولا يخل بما أمره الله ﷻ بإبلاغه، أما ما أُمِر بإبلاغه للناس فأهل السنة على أنه لا يلحقه شئ من النسيان بل هو محفوظ بحفظ الله منه؛ إلا أن يكون شيئاً قد أراد الله ﷻ نسخه وهو المراد فى هذه الآية الكريمة .

وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية أيضاً قد نزلت تطمئن الرسول ﷺ بثبوت القرآن فى قلبه وعدم ضياع شئ منه أو تفلته، لأنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فكان حريصاً كل الحرص على تتبع الوحى من جبريل – عليه السلام – فكانت هذه الآية وعد من الله ﷻ لرسوله ﷺ أنه يقرئه القرآن ولا ينساه الرسول، وكان الرسول ﷺ يتعجل إذا جاء جبريل– عليه السلام – يُلقي عليه الوحي فقال الله ﷻ له: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩)**﴾[1] فصار النبي ﷺ ينصت، حتى ينتهي جبريل من قراءة الوحي ثم يقرأه؛ وقد اطمأن إلى عدم ضياع شئ منه .

المسألة الثالثة: ما الدرس المستفاد للدعاة من قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ(٩)﴾ ؟

الجواب: تنصح الآية الكريمة الدعاة إلى الله أن يُذَكِروا الناس إن وجدوا للتذكرة والنصيحة فائدة ستعود على المنصوح، وكأنها تدعونا إلى التصرف وفق منهج فقه الواقع ومتغيرات الحياة والأحوال، وأهمية مراعاة قاعدة المفاسد والمصالح المترتبة على التذكرة والنصيحة، لأن مدار كثير من الأعمال الدعوية مبنى على هذه القاعدة .

(١) سورة القيامة / الآيات من ١٦– ١٩ .

فمتى تغلب جانب المفسدة وكان من النصيحة الضرر فالامتناع عنها هو الأوجب، لأن الله تعالى أمرنا بأن نذكر إن كان فى التذكير منفعة، وبمفهوم المخالفة إن لم تنفع التذكرة فالأوجب تركها.

المسألة الرابعة: علام يعود الضمير (ها) فى قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلأَشقَى(١١)﴾ ؟

الجواب: تتحدث الآية عن الاستفادة من الذكرى واتباع النصيحة، فهذا الطريق سيبتعد عنه الأشقى أى الكافر لأنه أشقى من الفاسق، فالكافر يتجنب الذكرى وينفر منها .

المسألة الخامسة: لم وصِفت النار بالكبرى ؟

الجواب: وصف الله ﷻنار جهنم بأنها الكبرى حتى لا يتوهم متوهم أن نار الآخرة مثل نار الدنيا، بل هى النار الكبرى إذا قورنت بغيرها من نيران الدنيا، وقد صدق فيها قول من لا ينطق عن الهوى ﷺ: (ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)[1]، فالنار الكبرى هى نار جهنم، والنار الصغرى هى نار الدنيا .

وقال الزمخشرى: ﴿**ٱلنَّارَ ٱلكُبرَىٰ(١٢)**﴾ هى: "السفلى من أطباق النار"[2]؛ أى أن النار الكبرى هى درجة من درجات جهنم، فالنار دركات .... أعاذنا الله منها .

المسألة السادسة: علام يعود اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ فى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)﴾؟

الجواب: أشارت الآية إلى أن بعض ما ورد فى هذه السورة الكريمة قد ذُكر من قبل فيما نزل على الرسل السابقين إبراهيم وموسى، قال الفخر الرازى: (والإشارة بكلمة ﴿هَٰذَا﴾ إلى مجموع قوله: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦)**

(١) صحيح البخارى ٣ / ١١٩١ ، ورقمه ٣٠٩٢ .
(٢) الكشاف ٤/٧٤١ .

وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾، فإن ما قبل ذلك من أول السورة إلى قوله: **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤)﴾**، ليس مما ثبت معناه في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام) [١]. وفى ذلك دليل على أن بعض ما ورد فى القرآن قد نزل على بعض الرسل السابقين، ولذا أورد الإمام السيوطى فى كتابه (الإتقان فى علوم القرآن) أنواعاً من علوم القرآن الكريم ذكر فى النوع الخامس عشر (ما أنزل منه على بعض الأنبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي ﷺ)، وقد ساق فى هذا النوع ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: (إنه – يعني – النبي ﷺ لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥)﴾**[٢]، وحرزاً للأميين... الحديث)[٣].

(وأخرج ابن الضريس وغيره عن كعب قال: فُتِحَت التوراةُ: بـ **﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)﴾**[٤] وختمت: بـ **﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيك فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً (١١١)﴾**[٥])[٦]. أما وصفه للصحف بالأولى فليس المراد منه أن هذه الصحف هى أول ما نزل، بل المراد بالأولية هنا أسبقية هذه الصحف للقرآن فى وقت النزول، أى أنها نزلت قبله لكنها ليست أولى كلام الله نزولاً فقد روي أن بعض الرسل قبل إبراهيم أنزلت عليهم صحف، فهو كوصف (عاد) بـ **﴿ٱلْأُولَىٰ﴾** في قوله: **﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ(٥٠)﴾**[٧].

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٥٧/٣٠ .
(٢) سورة الأحزاب / الآية ٤٥ .
(٣) صحيح البخارى ٤ / ١٨٣١ ، ورقمه ٤٥٥٨ .
(٤) سورة الأنعام/ الآية ١ .
(٥) سورة الإسراء / الآية ١١١ .
(٦) الإتقان فى علوم القرآن١٤٤/١، عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين السيوطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة سنة ١٣٩٤ه، ١٩٧٤م .
(٧) سورة النجم / الآية ٥٠ .